

شرح:

كتاب الكبائر

لِمُؤَلِّفِهِ الْإِمَامِ:

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَثْمَانَ الذَّهَبِيِّ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ

أ.د: سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَائِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّنَا وَمَوْلَانَا نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نَزَلَ الْقُرْآنَ لِلْحَقِّ تَبَيَّنَا وَجَعَلَ السُّنَّةَ مِثْلَهُ وَلَهُ بَيَانًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَصْدَقَ الْبَشَرِ لِسَانًا وَأَحْسَنَهُمْ بَيَانًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ أَفْتِدَاءً وَإِحْسَانًا.

﴿أَمَّا بَعْدُ﴾

فمعاشر المصلين والمصليات في مسجد قباء! نبدأ هذا اليوم في مسجدنا هذا درسًا جديدًا؛ نسأل الله **عَزَّ وَجَلَّ** أن يكون لنا وللمسلمين والمسلمات مفيدًا، وأن يكون مُجِدِّدًا لِيَاثَانِنَا مَقْوِيًّا لِعِزَائِمِنَا... حيث سنشرح إن شاء الله **عَزَّ وَجَلَّ**: "كتاب الكبائر؛ للإمام الحافظ المُحَدِّث العالم بالرجال الذهبي" **رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ** رحمةً واسعة وسائر علماء المسلمين.

﴿وَأَقُولُ مُقَدِّمًا بَيْنَ يَدَيِ الْكِتَابِ﴾: إن الله **عَزَّ وَجَلَّ** خلق الإنس لعبادته؛ كما قال ربنا **سُبْحَانَهُ**

وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأرسل لهم الأنبياء والرُّسُل يعلمونهم كيف يعبدونه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**؟؛ فكان دين الأنبياء **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** جميعًا واحدًا؛ هو: "توحيد رب العالمين، وألَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**"؛ وكانت شرائعهم شتى.

وختمهم ربنا بسيدهم وأشرفهم وأكملهم وأعظمهم شريعة؛ بـ: محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ حيث جاء بدين الأنبياء **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ**؛ وكانت شريعته أكمل شريعة، وأيسر شريعة؛ نزل الله **عَزَّ وَجَلَّ** عليه القرآن، وآتاه السُّنَّةَ مثله معه، وكان في القرآن والسُّنَّةِ أوامر ونواهي.

﴿وكانت الأوامر على نوعين؛ منها:

١- أوامر على سبيل الإلزام؛ تُفِيدُ الوجوب.

٢- وأوامر على سبيل التخيير؛ تُفيد الاستحباب.

➤ والنواهي على نوعين:

١- نواهي على سبيل الإلزام؛ تُفيد التحريم.

٢- ونواهي على سبيل التخيير؛ تُفيد الكراهة.

وأمر الله عزَّ وجلَّ بطاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهى عَنْ معصيته وعن معصية رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وكانت الطاعة في: فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

➤ فيدخل في الطاعة خمسة أشياء:

➤ الأول: فعل المأمور به على سبيل الإيجاب.

➤ والثاني: فعل المأمور به على سبيل الاستحباب.

➤ والثالث: ترك المنهي عنه على سبيل التحريم.

➤ والرابع: ترك المنهي عنه على سبيل الكراهة.

➤ والخامس: فعل أو ترك المباح بنية صالحة حسنة تُصيره طاعة.

➤ وكانت المعصية محصورةً في أمرين لا ثالث لهما:

➤ أولهما: ترك الواجبات.

➤ وثانيهما: فعل المحرمات.

وقد وقع الذنبان وأدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء قبل أن يهبط إلى الأرض:

⊖ فعندما أمر الله عزَّ وجلَّ الملائكة وكان إبليس معهم ولم يكن منهم بأن يسجدوا لأدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛

أطاع الملائكة أجمعون فسجد الملائكة أجمعون، وعصى إبليس فلم يسجد تكبراً وتعالياً؛

فكانت معصية إبليس: في عدم فعل الأمر الواجب.

⊖ وعندما أدخل الله عزَّ وجلَّ أدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمنا حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ الجنة نهاهما عن الأكل

من شجرة معينة؛ ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا

نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٥٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي

لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١]؛ فعصى أدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه فغوى فأكلا من الشجرة؛ ثم

تلقى أدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿ فكانت المعصية في هذين الأمرين: في ترك الأمر الواجب، وفي فعل المنهي عنه على سبيل

التحريم.

﴿ والمعلوم: أن المعاصي تختلف درجاتها في قبحها، وفي فحشها؛ وذلك باتفاق العقلاء... كما أن المعاصي تختلف في أثرها في دين الفاعل لها من جهة وصفه، ومن جهة قبول شهادته... ونحو ذلك باتفاق العلماء.

﴿ ثم اختلف العلماء بعد ذلك: هل تنقسم المعاصي إلى كبائر وصغائر؟ أم أن كل معصية

كبيرة ولا تسمى المعصية صغيرة؟

﴿ فذهب بعض السلف وتبعهم بعض العلماء: إلى أن فعل كل ما نهى الله عنه كبيرة، ولا يسمى شيء من المعاصي صغيرة؛ وهؤلاء لم ينظروا إلى ذات المعصية، وإنما نظروا إلى مَنْ يُعصى، نظروا إلى جلال الله، وعظمة الله، وعظم نعم الله **عَزَّ وَجَلَّ** على العبد؛ فقالوا: كل مَنْ يعصي الإله قد أتى بكبيرة... وهذا القول قل قائله، ولم يسنده الدليل.

﴿ وذهب جماهير الأمة: إلى أن المعاصي منها: كبائر، ومنها: صغائر؛ وهذا الذي دلت عليه الأدلة، وسيدكر الذهبي إن شاء الله طرفاً منها، ونُعلّق عليه ونُبين أوجه دلالة على هذا الأمر، والمؤمن خيره كله في الدنيا والآخرة في اجتناب الكبائر.

﴿ وحتى يجتنب المؤمن الكبائر فلا بدَّ له من أربعة أمور:

﴿ الأمر الأول: العلم بأن يعلم ما هي الكبائر؛ حتى يجتنبها ويتقيها، فكيف يتقي الكبائر مَنْ لا يعرف الكبائر؟ كما قال العلماء: "كيف يتقي مَنْ لا يعرف ما يتقي؟"؛ فلا بدَّ من العلم بهذه الكبائر.

﴿ والأمر الثاني: الاستعانة بالله **عَزَّ وَجَلَّ** على اجتناب الكبائر؛ فالمرء ضعيفٌ فقيرٌ إلى الله والله سبحانه هو الغني، ولا حول ولا قوة للإنسان إلا بالله **عَزَّ وَجَلَّ**؛ فمَنْ أعانه الله وفّق وهُدي، كيف وهذه المعاصي تدعو إليها النفس الأمارة بالسوء وتزئنها شياطين الإنس والجن وقد زُيِّنَتْ بالشهوات والملذات؛ حتى أن جبريل **عليه السلام** رأى النار وقد حُفَّت بالشهوات قال: «**لَقَدْ خَشِيتُ** **أَلَّا يَسْلَمَ مِنْهَا أَحَدٌ**»... فما أحوج العبد إلى أن يستعين بالله **عَزَّ وَجَلَّ** على اجتناب الكبائر، وأن يسأل الله دائماً أن يُجَنِّبَهُ هَذِهِ الكبائر.

❦ **والأمر الثالث:** النية الصادقة والعزم الجازم على اجتنابها عند تعلّمها وبعد تعلّمها، بعض الناس ينوي بتعلم الكبائر أن يفعل الصغائر؛ وهذا خطأ وذنبٌ في ذاته؛ فإن الصغائر ذنوبٌ يجب تركها ويَحْرُمُ فعلُها وَهِيَ معصيةٌ لله.

❧ **ولذلك قيل:** "لا تنظر إلى صِغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة مَنْ عصيت".

كما أن الإصرار على الصغيرة قد يُصَيِّرُها كبيرةً أو يكون مانعاً من تكفيرها بالأعمال الصالحة ونحوها.

❦ **قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:** "لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار"؛ رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والشهاب القُضاعي... وإسناده صحيح.

كما أن الصغيرة إذا انضافت إليها صغيرة ثم انضافت إليها صغيرة؛ تقويها، ويعظم بذلك أثرها؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُو قَلْبُهُ ذَاكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» رواه الترمذي، وابن ماجه واللفظ له، وحسنه الألباني.

❧ **ولذلك قال القائل:**

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا	وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التُّقَى
كُنْ فَوْقَ مَا شَرَّ فَوْقَ أَرْضِ	الشَّوْكَ يَحْدُرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً	إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

فلا ينبغي للمؤمن؛ عندما يتعلم الكبائر أن يكون قصده مِنْ ذَلِكَ: أن يفعل الصغائر؛ كما لا يليق بالمؤمن: إذا تُهِى عَنْ معصية أن يسأل: وهل هِيَ كبيرة؟ يكفيهِ أن يعلم أنها معصيةٌ لربه الذي أنعم عليه، والذي أكرمه؛ حتى يجتنبها.

❦ **والأمر الرابع:** فهو البُعدُ عَنْ مُقَدَّمَاتِهَا، والبُعدُ عنها، والبُعدُ عَنْ أهلها، ألا يكون قريباً منها؛ فَإِنْ مَنْ حَامٍ حَوْلَ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ.

﴿ **فهذه أمور أربعة مفتاحها وأساسها العلم؛ ولذلك:** عني أئمة الإسلام ببيان الكبائر قبل التأليف

وبعد التأليف؛ فكان السلف يذكرون في كلامهم الكبائر، ويعُدُّون الكبائر، وبعد التأليف كتب أئمة الإسلام كتبًا في بيان وعد الكبائر.

﴿ **وفي رأيي والله أعلم:** أن أحسن كتابٍ وأجود كتابٍ كُتِبَ عَنْ الكبائر هو: "كتاب الكبائر للذهبي" **رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**.

﴿ **وينبغي أن نعلم معاشر الفضلاء: أن هناك كتابين مطبوعين باسم كتاب الكبائر للذهبي وبينهما اختلاف:**

﴿ **فالأول:** الذي طُبِعَ قديمًا فيه سبعون كبيرة، وفيه أحاديث كثيرة، لكن فيه أحاديث موضوعة وواهية جدًا دون التنبيه عليها؛ وهذا يخالف منهج الإمام الذهبي **رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**، كما أن فيها قصصًا مُسْتَعْرَبَةً.

﴿ **والذي طُبِعَ ثانيًا وأخيرًا:** هو الذي بين أيدينا؛ وفيه ست وسبعون كبيرة، وفيه نفس الإمام الذهبي من جهة انتقاء الأحاديث والتعليق عليها، وتدل على صحة نسبته إليه أدلة كثيرة من جهة المخطوطات، ومن جهة المضمون.

﴿ **وهذا الأمر جعل بعض الباحثين يقول:** إن الكتاب الأول إنَّما هو مُسَوَّدَةٌ جمعها الإمام الذهبي ليتتقى منها كتابه؛ وَهُوَ مَا يَعْرِفُ عند الباحثين اليوم: بجمع المادة العلمية لفحصها والانتقاء منها؛ فوجد ناسخَ الكتاب وَهُوَ مُسَوَّدَةٌ فنسبه إلى الإمام الذهبي وليس كتاب الذهبي، وإنما كتاب الذهبي الذي طُبِعَ أخيرًا.

﴿ **وذهب أكثر الباحثين إلى:** أن الكتاب الأوسع الأول ليس للذهبي أصلاً، وأن نسبته إلى الذهب خطأ.

﴿ **بل قال بعض الباحثين:** إنها كَذِبٌ على الذهبي.

ولعل أحد النُساخ وجد كتابًا يتكلم عَنْ الكبائر وَعَلِمَ أن للذهبي كتابًا عَنْ الكبائر؛ فَرَقَمَ اسم الذهبي على ذلك الكتاب، وهذا يوجد في المخطوطات كثيرًا، فكم من مرة قرأت في أدلة المخطوطات أن هناك مخطوطًا اسمه كذا برقم كذا وأعلم أن الكتاب نفيس فأسافر إلى مركز هذا المخطوط وأطلبه

وأجد أن الصفحة صفحة العنوان كُتِبَ عليها هذا؛ فإذا قرأت في داخل الكتاب علمت أنه كتاب آخر وأنه ليس الكتاب الذي رُقم الاسم على الصفحة الأولى منه... وهذا كثير.

👉 **ولذلك:** الذي يحقق المخطوطات لا بُدَّ من أن يكون على دراية، ليس صحيحًا ما يشيع عند الباحثين: أن تحقيق المخطوط عملٌ سهل، بل تحقيق المخطوط عملٌ صعب ويحتاج إلى معرفة دقيقة للتعامل مع المخطوطات، ومعرفة دقيقة لنفس مؤلف الكتاب، ومعرفة دقيقة لمذهب الإمام الذي كتب الكتاب إن كان له مذهب أو إن كان في الفقه... فلا ينبغي لطلاب العلم: أن يستسهلوا موضوع تحقيق المخطوطات.

👉 **وعلى كل حال:** فهذا الكتاب الذي بين أيدينا لا شك أنه "كتاب الكبائر للذهبي" **رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**؛ وقد كُتِبَتْ إحدى مخطوطاته في حياة الإمام الذهبي **رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**؛ حيث قال فيها الناسخ في أولها عن الذهبي: "متع الله المسلمين ببقاء حياته"؛ أي: أن الناسخ عندما كتب هذا كان الذهبي **رَحِمَهُ اللَّهُ حَيًّا**؛ فهذا الكتاب الذي بين أيدينا بحمد الله لا شك أنه للذهبي. والإمام الذهبي **رَحِمَهُ اللَّهُ** لم يُرد حصر الكبائر في هذا الكتاب وإنما أراد ذكر أظهرها، وقد ختم الكتاب بفصل فيه أمور ذكر **رَحِمَهُ اللَّهُ** أنه يُحتمل أنها كبائر؛ وذكر فيه إحدى وخمسين معصية، يعني أنه **رَحِمَهُ اللَّهُ** ذكر ستًا وسبعين معصية نصًا على أنها كبائر، وذكر إحدى وخمسين معصية على أنها تحتل أن تكون كبائر؛ وهي كبائر في الحقيقة نظرًا إلى أدلتها كما سيأتي إن شاء الله **عَزَّ وَجَلَّ**. ونشرع في قراءة كلام الإمام الذهبي والتعليق عليه.

(المتن)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَلِشَيْخِنَا وَالسَّامِعِينَ.

👉 **قَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:**

الحمد لله على الإيمان به، وبكتبه، ورُسُلِهِ، وملائكته، وأقداره، وصلَّى الله على نبينا محمدٍ وآله وأنصاره صلاةً دائمةً تُجِلُّنا دار القرار في جواره.

(الشرح)

هذا استهلالٌ من الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ للكتاب، وقد حَمِدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على أعظم نعمة أنعم بها علينا؛ وَهِيَ: نعمة (الإيمان به، وبكتبه، ورُسُلِهِ، وملائكته، وأقداره).

﴿ وفي هذا: براءة استهلال منه رَحِمَهُ اللهُ؛ حيث يشير الذهبي هنا إلى: أن اجتناب الكبائر أعظم خِصال الإيمان؛ فاجتناب الكبائر من الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة من الإيمان.

كما أن الإيمان بهذه الأركان يقتضي اجتناب الكبائر؛ فَمَنْ آمَنَ بالله، وبكتب الله، وبرُسُل الله، وبملائكة الله، وبأقدار الله؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا مِنَ الْمَصِيرِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، راجيًا رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وهذا يقتضي منه جزمًا: أن يجتنب الكبائر.

(وصلَّ الله على نبينا محمدٍ وآله وأنصاره) أنصاره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هم الذين آمنوا به، وصدقوه فيما أخبر، وأطاعوه فيما أمر، واجتنبوا ما نهى عنه وزجر.

﴿ وهم قسمان:

لله الأول منهم: صحابة رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وهم أفضل الأمة بعد نبيها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد حازوا شرف الصُّحبة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لله والقسم الثاني: إخوان النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين آمنوا به ولم يروه، وأحبوه وصدقوه فيما أخبر، وأطاعوه فيما أمر، واجتنبوا ما نهى عنه وزجر؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْتَنَا إِخْوَانًا» قَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» رواه مسلم.

﴿ فجاء في هذا الحديث ذكر القسمين:

١- صحابة رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢- وإخوان رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه الأخوة لا تتحقق؛ إِلَّا إِذَا صَدَقَ الْعَبْدُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخبر به، ومقتضاها: طاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر؛ وأعظم ما نهى عنه وزجر: الكبائر؛ فهذا يقتضي من المؤمن: أن يجتنب الكبائر.

قَالَ: (صلاة دائمة تُحِلُّنا دار القرار في جواره) ودخول الجنة إنَّما هو بالإيمان والعمل الصالح

برحمة الله وفضله؛ ومن ذلك: اجتناب الكبائر... كما سيأتينا بعد قليل إن الله عَزَّ وَجَلَّ.

فالعلماء رَحِمَهُمُ اللهُ لا يسردون الكلام سردًا بلا فائدة، وإنما حتى في استهلالهم يكون لذلك فائدة تتعلق بما يوردون، وترون هنا: توافق الفواصل توافقًا لطيفًا، ليس سجعًا كسجع الكُهان، وإنما أمرٌ يُلطف ويحسِّن سماعه، ويجب المستمع أن يسمعه.

﴿ فيجب على طلاب العلم: أن يفرقوا بين سجع الكهان المتكلف الذي نهى عنه النَّبِيُّ صَلَّى

الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين توافق الفواصل بما يحسِّن في السمع؛ وقد وقع هذا في القرآن، ووقع في كلام رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووقع في كلام صحابة رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذلك أني معاصر الأُحبة! أرى بعض طلاب العلم: إما أن يعيب على القائل إذا وجد في كلامه توافقًا في الفواصل يظن أنه كسجع الكُهان، وإما أن يجتنب في بيانه أن تتفق الفواصل على لسانه... وهذا في الحقيقة: ليس مطلوبًا في البيان؛ ولكن المطلوب: أن يجتنب سجع الكُهان؛ هذا أمرٌ من الأهمية بمكان.

(المتن)

هذا كتابٌ نافعٌ في معرفة الكبائر إجمالاً وتفصيلاً؛ رزقنا الله اجتنابها برحمته.

(الشرح)

(هذا كتابٌ نافعٌ في معرفة الكبائر إجمالاً)؛ أي: بذكرها، أن تعرف أن الكبائر: الإشراك بالله،

والقتل بغير، و... و.

(وتفصيلاً)؛ أي: بذكر أدلتها حتى تكون عالماً بها وعلى يقينٍ من ذلك.

(رزقنا الله اجتنابها برحمته) أشار إلى ما ذكرنا: أنه لا بُدَّ في اجتناب الكبائر من معرفتها، ولا بُدَّ

من قصد تركها، ولا بُدَّ من الاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ على تركها.

﴿ وأشار بقوله: (اجتنابها) إلى أن المطلوب: البُعد عنها وعن مُقَدِّمَاتِها، والبُعد عن أهلها... كما

سيأتي إن شاء الله تبيينه إلى ذلك.

(المتن)

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] فقد تكفل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا النص لِمَنْ اجتنب الكبائر بأن يُدْخِلَهُ الجنة.

(الشرح)

﴿أورد الذهبي رحمه الله هذه الآية للدلالة على أمرين:

﴿الأمر الأول: أن المعاصي تنقسم إلى: كبائر، وصغائر.

﴿والأمر الثاني: ذكر فضل اجتناب الكبائر؛ تحفيزاً للنفوس حتى تحرص على اجتنابها.

قال ربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

[النساء: ٣١].

﴿دلت هذه الآية على أن المعاصي منها كبائر وصغائر من وجهين:

﴿الوجه الأول: أن ربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ فدل

ذَلِكَ عَلَى: أن هناك مما نُنْهَى عَنْهُ ليس من الكبائر؛ لأن الله قال: ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ولو كانت

المناهي كلها كبائر؛ لقال الله: إِنْ تَجْتَنِبُوا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ؛ فلما قال الله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ

عَنْهُ﴾؛ عَلِمْنَا: أن مَا نُنْهَى عَنْهُ مِنْهُ كَبَائِرٌ، ومنه دون ذَلِكَ.

﴿والوجه الثاني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ أولاً يا إخوة:

الذي يحتاج أن يُكْفَرَ: هو الذنب؛ والذي يُوصَفُ بِكَوْنِهِ سَيِّئَةً: هو الذنب.

انظروا! ربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ لو كانت الذنوب كلها

كبائر؛ إِذَا اجْتَنَبْنَا الْكَبَائِرَ مَا الَّذِي يُكْفَرُ؟ وما السيئة؟؛ فدل هذا على أن الذنوب منها كبائر، ومنها

صغائر: هي السيئات.

﴿ودلت هذه الآية على فضل اجتناب الكبائر بأمرين:

﴿الأمر الأول: تكفير السيئات.

﴿والأمر الثاني: دخول الجنة.

﴿ **أما تكفير السيئات:** في قول الله **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿ **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ**

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ فما معناه؟

﴿ **للعلماء في هذا ثلاثة أقوال:**

﴿ **القول الأول:** إن اجتناب الكبائر شرطٌ لتكفير الصغائر بالمكفّرات كالأعمال الصالحة ونحوها؛ فَمَنْ اجتنب الكبائر وفعل صغيرة وصلّى مثلاً؛ تُغْفَرُ لَهُ الصغيرة، أما مَنْ فعل كبيرةً وصغيرةً وصلّى؛ فإنه لا تُغْفَرُ لَهُ الكبيرة ولا الصغيرة بالصلاة؛ هذا معنى قولهم: إن اجتناب الكبائر شرطٌ لتكفير الصغائر؛ واختار هذا القول شيخنا الشيخ ابن باز **رَحِمَهُ اللَّهُ**.

﴿ **والقول الثاني:** إن معنى الآية: أن الذي يُكْفَرُ بالأعمال الصالحة ونحوها هو الصغائر لا الكبائر؛ فَمَنْ فعل كبيرةً وصلّى لا تُغْفَرُ بالصلاة، وَمَنْ فعل صغيرةً وصلّى تُغْفَرُ بالصلاة، طيب! مَنْ فعل كبيرةً وصغيرةً وصلّى؟ تُغْفَرُ الصغيرة ولا تُغْفَرُ الكبيرة... انتبهتم للفرق بين القولين! واختار هذا القول شيخنا الشيخ ابن عثيمين **رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**.

﴿ **والقول الثالث:** أن هذا منسوخ، وأن المكفّرات العشرة التي يذكرها العلماء تُكْفَرُ بها الصغائر والكبائر؛ للأدلة الأخرى التي فيها التكفير بالعمل.

مثلما جاء: أن الذي يصلي الصلوات الخمس كالذي يغتسل خمس مرات «**لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ**»؛ قالوا: و"شيء" نكرة في سياق النفي فيعم.

ومثلما جاء: أن «**مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»؛ قالوا: هذا ظاهره أنه يرجع بلا ذنوب.

وكما في الحديث الآخر: وأما وقوفك بعرفة «**وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكَ مِثْلَ رَمْلِ عَالِجٍ**».. إلى آخر الحديث «**عَسَلَهَا اللَّهُ عَنْكَ**».

ويسندون كلامهم ب: أن فضل الله يُزاد ولا ينقص، إذا تفضل الله على الأمة بشيء فإنه سبحانه لا يُنْقِصُهُ وإنما يزيده؛ فيقولون: الله تفضل على الأمة في أول الأمر بأن الأعمال الصالحة تُكْفَرُ الصغائر دون الكبائر، ثم نسخ ذلك... واختار هذا القول الإمام الألباني **رَحِمَهُ اللَّهُ** ورحم جميع العلماء، وهذا القول قال به قليل من العلماء.

﴿ **وهناك قولٌ ضعيفٌ قولٌ رابعٌ** : أن الإنسان إذا اجتنب الكبائر عُفيَ لَهُ عَنْ الصغائر أصلاً بغير مُكفِّراتٍ؛ يعني: إذا اجتنب الكبائر فالصغائر مَعْفُوٌّ عنها ولو لم يأتي بِمُكفِّرٍ، ولكن هذا القول ضعيف.

﴿ **والأرجح عندي والله أعلم** : أن اجتناب الكبائر شرطٌ لمغفرة الصغائر بالمُكفِّرات؛ كالأعمال الصالحة ونحوها؛ فهو ظاهر الآية وظاهر الحديث الذي يأتي معنا... هذا الأمر الأول.

﴿ **والأمر الثاني** : ﴿ **وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا** ﴾ أن اجتناب الكبائر سببٌ لدخول الجنة بلا سابقة عذاب؛ انتبهوا! أن اجتناب الكبائر شرط لدخول الجنة بلا سابقة عذاب، أما مَنْ صدرت منه كبيرة فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عَنْهُ.

مَنْ صدرت منه كبيرة ولم يتب منها غير الشرك بالله الأكبر؛ تحت المشيئة، لكن مَنْ وافى الله وقد اجتنب الكبائر كلها؛ يدخل الجنة بغير سابقة عذاب؛ بفضل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

﴿ **وهذا معنى قول بعض علمائنا** : "إن اجتناب الكبائر شرطٌ لدخول الجنة"؛ كما جاء على لسان شيخنا الشيخ ابن باز **رَحِمَهُ اللهُ**؛ فإن بعض طلاب العلم يفهمون هذا الكلام خطأ، ويقولون: الشيخ يرى أن اجتناب الكبائر شرط لدخول الجنة؛ ومعنى ذَلِكَ: أن الذي يفعل كبيرة ما يدخل الجنة... هذا ما يقوله الشيخ وحاشاه أن يقوله، ولكن مقصوده: إن اجتناب الكبائر شرط لدخول الجنة بغير سابقة عذاب، وإن شئت قل: إنها سببٌ لدخول الجنة بفضل الله بغير سابقة عذاب... وهذا يجب فهمه حتى لا يقع الزلل في فهم كلام بعض العلماء.

﴿ **إذا عرفنا** : أن المعاصي منها سيئات صغائر، ومنها كبائر؛ وأن اجتناب الكبائر من فضله تكفير السيئات على ما بيناه ودخول الجنة على ما بيناه.

وانظروا! قال ربنا: ﴿ **إِنْ تَجْتَنِبُوا** ﴾ والاجتناب: هو المَبَاعَدَة؛ بأن تكون في جانب والكبيرة في جانبٍ آخر؛ وهذا أبلغ من عدم الفعل، الاجتناب أبلغ من الترك... وهذا يقتضي: أن الإنسان يُبَاعِدَ عَنْ الكبائر وعن مجالسها، وعن أهلها؛ فلا يجلس في مجالس أهل الكبائر إلا إذا كان قادراً على الإنكار عليهم، أو كان قادراً على إخراجهم من ذنبهم إلى شيءٍ آخر؛ كما يقولون: كان قادراً على تغيير الموضوع، عنده قدرة أنه إذا رآهم يغتَابون بغير الموضوع ويُخْرِجُهم من الغيبة، أما إذا لم يكن قادراً على

الإنكار عليهم، ولا على إخراجهم من المنكر إلى غيره؛ فإنه لا يجوز أن يجلس معهم مع القدرة، فإن جلس معهم مع القدرة؛ فهو مثلهم.

فَلَا بُدَّ مِنْ مُجَانِبَةِ الْكِبَائِرِ، وَالْبُعْدِ عَنْهَا وَعَنْ أَهْلِهَا؛ إِلَّا إِذَا كَانَ وَجُودُ الْإِنْسَانِ قَاطِعًا لَهَا: إِمَّا بِإِنْكَارِهَا، وَإِمَّا بِإِخْرَاجِ النَّاسِ عَنْ هَذِهِ الْكَبِيرَةِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ لَا مَعْصِيَةَ فِيهِ. لَعَلْنَا نَقِفُ عِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ.

👉 وأقول دائماً لطلاب العلم: "أن تقرأ سطرًا تفهمه وتعلمه؛ خيرٌ لك من كتابٍ تُتِمُّه وتخرج عند نهايته كما دخلت عند بدايته، لا تحصل إلا على الأجر، وأما العلم إن حصلتَ حصلتَ منه قليلًا".
بارك الله في الجميع، وتقبل الله من الجميع، وشرح صدور الجميع.

وَاللَّهُ أَعْلَى وَأَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمْ

